E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
/Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

هناك مقهى على الرصيف قلما ذهبت اليه فى السابق ما زال على حاله. جلست اشرب القهوة واتامل حركة الشارع الذى عرفته اعوام طويلة.

مضى الاصدقاء كل فى طريق. لم يعد سوى القليل منهم ممن نلتقى فى مناسبات متباعدة واخرين ذهبوا الى بلاد اخرى.

قرات مرة انه من الصعب ان نتذكر كل الايام وهذا صحيح تماما. لكننا نتذكر اللحظات الحميمية خاصة الحزينة والسعيدة منها.

بقيت ساعتين جالسا وانا استعيد ذكريات عصر مضى!.

أمكنة عزيزة

ذهبت اليوم الى منطقة عزيزة على. كان صديق يقول لى مازحا انها منطقة نفوذى بحكم كثرة التردد عليها كونها قريبة من الجامعة. انها منطقة تغص بالذكريات والذكريات صدى السنين الحاكى كما تقول الاغنية.الابنية لم تتغير لكن المقاهى التى كانت على الطريق والتى امضينا فيها اوقاتا كثيرة لم تعد موجودة. وحتى وان بقيت المقاهى فمن يعيد لنا الرفاق كما قال محمود درويش. لكن الحقيقة ان لا شىء يمضى يمكن استعادته.

والاستعادة الممكنة هى من خلال الذاكرة.عدت بالذكريات الى اولائك الاصدقاء والصديقات حيث كنا نلتقي هناك فى امسيات الجمعة والسبت.و كنا فى اغلب الاحيان فى اخر الليل نعود مشيا على الاقدام الى السكن الجامعى، حيث كان المحظوظ منا يسكن فى سكن سوغن القريب والاخرين وانا منهم كنا نسكن فى سكن طلابى بعيد.

قالت احدى الصديقات انه لا مشكلة فى استعادة الذكريات عندما لا يتغير المكان ولكن المشكلة تقع عندما يتغير المكان.

ربما تكون محقة فى هذه الملاحظه!.

البنايات الكبيرة لم تزل على حالها.و حتى بائع الورد على الطريق لم يزل فى مكانه حتى وان تغير البائع. لكن اجواء تلك الازمان لم تعد موجودة.كان ذلك فى عصر ما قبل العولمة.كانت الاشياء مختلفة تماما عما هى الان.اوسلو القرية الكبيرة الوادعة كما وصفها احد الاصدقاء تحولت الى مدينة كوزموبولتية تضج بلغات عدة وقد تطورت فيها اشياء جميلة لكن ازدادت المشاكل وانتهى زمن البراءة..

وهي فكرة جيدة في رأيي لأنها تنزع السبب الأول للحروب ألا وهو التنافس والطمع. لكن المشكلة أن الأفكار الجيدة كما يقول الانكليزي جون لوك تجد مقاومة كبيرة.

أما عندما نعود إلى جذورنا في الشرق فلا نجد أفضل أن نتذكر معلمنا ميخاييل نعيمة الذي كرس حياته للتبشير بالفكر اللاأناني والفكر الروحاني. وقد قضى شطرا كبيرا من حياته معتكفا في أحضان الطبيعة في الشخروب.

و نختتم بكلامه كما ورد في كتابه مرداد:

"المحبة سلام نشوان بألحان الحياة. والبغضاء حرب صاخبة بصرخات الموت. فأيّ الاثنين تختارون : أن تحبوا فتكونوا في سلام دائم ؟ أم أن تبغضوا فتكونوا في حرب أبديّة.

يا ليتها لم تكن!

أنا ناقم جدا على العولمة رغم أني لا أنكر بعض إيجابياتها. أنا ناقم لأنها تحدث ضجيجا لا يطاق. صرت أتحسر على تلك الأيام الهادئة، عندما كان إيقاع الحياة هادئ جدا ولا نتحدث في الهاتف إلا في البيت وغالبا في المسا، أما الآن فلا راحة أبدا. وأعرف شخصا لم يعد يحمل الموبايل الذكي واشترى موبايل عادي للرد على المكالمات العادية.

أتذكر أيام التلفزيون النرويجي عندما كان يتوقف البث الساعة الحادية عشر مسا مختتما بالنشيد الوطني. وأقول في نفسي ما أجمل تلك الأيام!

و أتذكر ان قالت لي صديقة نرويجية صارت لاحقا دبلوماسية في الأمم المتحدة. وزوجها كان قبل وفاته المفاجئة دبلوماسيا أيضا، أخبراني عن سر وهو أن هناك مقابله تلفزيونية مع والدتها لتتحدث عن دورها في الحرب العالمية الثانية. ابتسمت مستغربا وقلت هل هذا سر؟ الآن صار كل شيء نقرأه عن النت. لم يعد هناك أسرار !هذا الدبلوماسي خدم في السفارات النرويجية في أمريكا اللاتينية وقد كان ثاني دبلوماسي يقول لي أنه يؤيد فلسطين. ولم يكن الأمر سهلا قوله في تلك الأيام عندما كانت النرويج قلعة تأييد للصهاينة. أما الدبلوماسي الآخر فقد صار صديقا لاحقا وكان سفيرا للنرويج في لبنان وكان بالفعل معروفا جيدا في الخارجية بتأييده لفلسطين. وقد توفي منذ عامين رحمه الله.

أتذكر هذه الأيام الكاتب ألبير قصيري وهو كاتب مصري من أصل سوري أمضى حياته في فندق متواضع في باريس وكان لا يملك أي شيء، كان القصيري من أصحاب الفلسفة المعادية لكل ملكية فردية.

وعندما بدأت الحرب هناك فكرت بالأخ صاحب المطعم اللبناني والأصدقاء في كييف والمدن الأخرى الذين وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها في أتون الحرب متمنيا السلام لهم.

أنا اشكك بكل اللغة السياسية التي تستعمل لتغذية الحروب. ولهذا أنا حذر جدا في تصديق الكثير مما يقال. لا أطيق البروبوغاندا السياسة لأني أعرف كم من البشر قتل عبر التاريخ. وأعتقد أن تجارة الحروب وهي تجارة قديمة قدم الإنسان ومن أبشع أنواع التجارة التي عرفها الإنسان. قلة من الساسة يثيرون الشعوب ضد بعضها فتجدهم يقتلون بعضهم البعض. هذا على الأقل ما رأيناه في غالبية الحروب عبر التاريخ. أما ماذا تعلم الإنسان من الحروب؟ بكل أسف لا شيء سوى تعلمه تطوير آلات القتل!

تجارة الحروب!

أنظر إلى صور الأوكران الهاربين من أتون الحرب بألم، من اكتوى بنار الحروب والتهجير يعرف جيدا حجم المأساة التي يتعرض لها الناس في الحروب. وهذا ما أتمنى أكثر في مثل هذه الصراعات المدمرة للأوطان والشعوب، لأن السياسة تتقلب وتتغير وفي بعض الأوقات لا يعرف المرء الحقيقة تماما وسط أكوام البروبوغاندا.لكننا نعرف ونشعر بألم الناس العاديين.

آخر مرة عندما كنت في مدينة لفيف غربي أوكرانية سألت الأخ على صاحب المطعم اللبناني في مدينة لفيف إن كان عندهم فرع في كييف، لأني كنت سأذهب إلى كييف لأقابل صديقتى تانيا وهى شاعرة أوكرانية. قال لا يوجد لدينا فرع لكن أعرف صاحب مطعم لبناني في كييف واسم المطعم "بيروت اكسبريس" ويمكنك أن تجده على النت، شكرته وفي اليوم التالي توجهت بالقطار إلى كييف.

التقيت بها لدى وصولي إلى المحطة ومضينا في رحلة حول المدينة ولما عدت إلى الفندق فوجئت أن مطعم بيروت اكسبريس يقع مباشرة في الشارع أمام الفندق. ذهبت إلى المطعم والتقيت بابنه الذي تحدثت معه قليلا ثم جاء صاحب المطعم الذي استقبلني بترحاب وجلست أشرب القهوة العربية وهو يحدثني عن بعض من تجربته في الحياة في أوكرانية.

حين أزور بلدا أحب أن أتعرف عليها من خلال من أعرفهم من أهل البلاد وأيضا الاستماع إلى تجارب العرب الذين يعيشون هناك لأكون فكرة معقولة عن البلد.

وفي اليوم التالي جاءت صديقتنا وذهبنا للمطعم ثم ذهبنا بعد ذلك في جولة حول المدينة.

يا له من صوت ساحر

يبقى في الذاكرة!

أذهب لأجلس قليلا على الشرفة. أنظر إلى الأضواء البعيدة والبيوت التي تستلقي على كتف التلة بهدوء. لم أعد أسمع صوت نباح الكلاب. فلعلها أدركت أن يوما جديدا قد بدا.

مع الصباح!

كم هو جميل النهوض في صباح كانون في هذا الوقت الباكر عندما لم تستيقظ المدينة بعد.

أسمع أصوات كلاب من بعيد فتضفي على الجو لون البساطة القروية. آخر مرة عشت هذا الجو كان من حوالي أربعة أعوام عندما ذهبت إلى قرية أوكرانية. وفي الصباح الباكر نهضت على أصوات الديك وهي تصدح في ذلك الصباح الرائع الذي يبدو لي الآن كأنه قادم من أزمنة بعيدة جدا.

شربت قهوة طازجة كنت قد اشتريتها من مهرجان القهوة في مدينة لفيف الجميلة التي تظل ذكراها باقية في القلب. حيث كانت رائحة القهوة تملأ أجواء المدينة في تلك الأمسيات التي لا تنسى.

جلست أشرب القهوة وأنا أرى الفلاحين والفلاحات يمرون وهم يجرون أبقارهم ويتحدثون. لا أعرف ماذا كانوا يقولون لكني كنت أشعر بجمال الكون في هذا المكان.

لم تنهض المدينة بعد من سباتها. لكن حركة الحياة بدأت رويدا رويدا. وشهر كانون دوما هو شهر التأمل بالنسبة لي. ففيه نشهد نهاية عام بكل ما مر به من أحداث على المستوى الشخصي أو العام. وتبدو لي البشرية هذه الأيام مثل عربة تجرها خيول متعبة في طرق جبال وعرة.

ها أنذا أعمل فنجان قهوة آخر وأتساءل كيف يمكن أن يكون الصباح بدون رائحة القهوة!

أتذكر قصيدة لاولفر هيرفورد

أسمع صوت الطائر وهو يغني في ظلمة كانون

أما أنا فقد قررت في المساء أن أذهب للمقهى على سبيل التغيير، كان المقهى هادئا سوى من رجل يجلس وحيدا وشابتين تتحذثان وتشربان البيرة<

كان النادل ميشو قد عاد من إجازته في لاتفيا فسألته كيف كانت إجازته فقال أنه قضاها كالعادة مع الأهل الأصدقاء. ثم عاد ليعبث بالموبايل أما أنا فقد جلست أستمع للموسيقى وأشرب القهوة بهدوء.

بقيت هناك قرابة الساعتين ثم عدت إلى البيت. كان الثلج لم يزل يتساقط والسماء غائمة وقد بدا الجو كئيبا.!

عودة الشتاء!

صحونا اليوم على تساقط الثلج، يبدو ان الشتاء يعود إلينا من جديد قال جاري البولوني الذي كان عازفا موسيقيا في سالف الأيام. وهذا الجار يخبرني بين الحين والآخر انه سيعزف موسيقى فأقول له لا مشكلة لدي لن الموسيقى لا تزعجني. لكني أعترف أن هناك بعض الموسيقى الصاخبة التي لا أطيق سماعها. وفي الأيام الخوالي عندما كنا نذهب إلى الديسكو كنت أصاب بانزعاج كبير بسبب صخب الموسيقى. ولا أفهم حتى الساعة كيف يمكن للمرء ان يسعد بهذا النوع من الموسيقى. ولهذا كنت قليل أتردد مع شلة طلاب الجامعة إلى الديسكو.

قلت للجار الذي كان يقف يدخن على مدخل بيته أني آمل ان تكون هذه آخر رشقات ثلج هذا العام. قال آمل ذلك! ودعته وانصرفت إلى داخل البيت.

لقد أمضيت وقتا طويلا في الكتابة وبعض الوقت في القراءة. وبين الحين والآخر أذهب للحديقة أراقب الثلج المتساقط الذي غطى الحديقة بعد أن كان الثلج قد انحسر جزئيا.

في بلاد المشرق هناك أمثال تدل على برد آذار الذى يسمى أبو الزلازل والأمطار.وفيه ما يسمى المستقرضات حيث يستقرض شهر شباط بضعة أيام من آذار لذا يقولون في المستقرضات عند جارك لا تبات!

أما الآن فمع التغيرات المناخية لم نعد نعرف إن كانت الأمثال القديمة تصلح لوصف أجواء التقلبات المناخية.

أخرى مثل كتاب جورج اوريل 1984 وهو كتاب رائع يتحدث عن الحب كنوع من النضال للدولة البوليسية التي تراقب كل حركات الإنسان.والطريف أن الكتاب كان هدية من كرستين وهي صديقة فرنسية من مدينة مونتبليه في ذات العام أي عام 1984.

شموع وسط الظلام

يصلني بين الحين والآخر رسائل الكترونية فيها مختلف الأسئلة، منها تعقيب على مقال ومنها من يسأل أن أرسل له أو لها كتاب ما من كتبي المنشورة إلخ من الأسئلة الكثيرة. وأنا دوما أسعى قدر الإمكان أن أرد انطلاقا من احترام الشخص الذي كتب لي.

لكني اليوم تلقيت رسالة مختلفة من قارئة كتبت تقول أرجو أن تهتم بنفسك هذه الأيام الصعبة الخ.

أعتقد أن بناء الثقة والحوار بين الكاتب والقارئ مهم جدا، خاصة وأننا نعيش في زمن التفاعل بين الكاتب والقارئ. لم يعد القارئ يقرأ فقط بل بات بوسعه أن يعقب ويقول رأيه، ويُغني المقال بآراء وأفكار قد لا تكون قد خطرت على الكاتب. وأنا حين أقرأ مقالا فأني أستفيد من المقال ومن التعليقات التي تكتب لأنها تشكل إغناء للمقال خاصة التعليقات الجيدة لأنه هناك أيضا تعليقات مستفزة تخرج عن الموضوعية.

المعروف أن الأزمات كالحروب مثلا وسواها ينتج عنها تغير في سلوك الناس. علاقات الحب مثلا تزداد في أوقات الحروب أكثر بكثير من زمن ما قبل الحروب. نسب الزواج أثناء الحرب العالمية الثانية كانت أعلى بكثير من فترة ما قبل الحرب. ولعل السبب أن الناس في أوج الأزمة يبحثون عن أمل في الحياة الصعبة. وبالفعل ربما تكون أجمل الروايات تلك التي تحدثت عن قصص عاطفية، مثل لمن "تدق الأجراس" لهمينغوي.

وهي عبارة عن تجربة الكاتب نفسه لدى انخراطه في صفوف القوات الجمهورية الإسبانية لمحاربة فرانكو وحزب الفلانج الفاشي. هناك تعرف على شابة اسبانية وقع في غرامها. ونرى قصصا عديدة

الفلسطنيين لأنه ظهر في ثلاثينيات القرن الماضي جماعة فلسطينية أطلقوا على أنفسهم اسم الكف الأسود.

وقد نجحوا في اغتيال حاكم الجليل الانكليزي اللواء اندروز. وقبل نحو ثلاثين عاما أو أكثر بقليل التقيت في مؤتمر حول فلسطين مع اللورد كارادون الذي كان حاكما عسكريا في نابلس ان لم أكن مخطئا وتحدثنا عن تلك المرحلة، واللورد كارادون بالمناسبة كان مبعوث بريطانيا في الأمم المتحدة عام 67 وكان صاحب القرار الشهير 242. وقد حاولت أن أطلب منه اعتذار عن تلك المرحلة لكنه لم يقبل.

من غرائب القدر أن الشاب القصير برينسيب لم يستطيع في المرة الأولى اغتيال ولي عهد النمسا الذي أكمل رحلته في العربة مع زوجته الدوقة صوفيا.

ثم عاد برينسيب ونجح في اغتيال الدوق النمساوي الأمر الذي أدى كما هو معروف لإعلان الإمبراطورية النمساوية الهنغارية الحرب على صربيا الأمر الذي أدى الى اشتعال الحرب.

أتأمل وجوه الرجال وهم يتحدثون عن الحرب فى أوكرانيا وأنا أفكر أن كافة الحروب الكبرى بدأت بشكل أو بآخر من أوروبا الشرقية! ونحن الآن نعيش أزمة كبيرة في حرب أوكرانيا ولا أحد يعرف أين تصل بنا. خاصة أننا بدأنا نسمع أنها قد تقود إلى حرب عالمية!

تاريخ اوروبا فى المطعم!

ذهبت هذا الصباح لأتناول فطوري في مطعم محلي يرتاده أشخاص يأتون كل صباح. وقعت مشكلة لغوية مع النادلة لكنها بمساعدة امرأة أخرى فهمت أني أطلب اومليت أي العجة كما نسميها.

أحب ارتياد هذه المطاعم لأن فيها روح الشعب.حتى وإن لا افهم ما يقولون لكن أشعر بالمناخ الحميمي، وهذه الأماكن حسب تجربتي في الحياة فيها دفء وحميمية أكثر من الأماكن التي نسميها راقية. وقد كنت دوما أتخفظ على تعبير راقي لأنه تعبير يربط الغني بالرقي وهذا ليس صحيحا بالضرورة.

الرجال الكبار الجالسين على طاولة قريبة يتحدثون عن أوكرانيا وهذا أفهمه من خلال لفظ الكلمة مرارا. هؤلاء الرجال يذكروني بأجواء الحرب العالمية الأولى. فقد كانت مرحلة عصيبة في تاريخ أوربا والعالم لأن أوروبا عادة تجر الآخرين لمشاكلها وحروبها تصبح عالمية!!!

في هذه المرحلة التي كانت تغلي جاء الشاب القصير القامة برنسيب ومعه خمسة من وطني الصرب، فقد كانت منطقة الصرب تابعة حينها للإمبراطورية النمساوية الهنغارية. كما كان ورائهم دعم من جماعة الكف الأسود البوسنية الصربية. وكان هدف هؤلاء تحرير البوسنة والهرسك من قبضة الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وإقامة دولة سلافية.

و الملاحظ أن بين المجموعة شاب مسلم اسمه محمد، وهذا أمر طبيعي حينها لأن مسلموا البوسنة سلافيون والنضال تركز على البعد القومي السلافي وليس الديني. والطريف أن الإسم ليس غريبا على

غرابة ان هذا النمط من الحوارات ادى احيانا الى الضرب والاهانات الشخصية.

والانسان متى يبدا فى الصراخ فانه بطبيعة الحال يفقد القدرة على التركيز كما يفتقد القدرة عل الاقناع.

انا اعتقد ان المناقشات تثرى الجميع لان كل شخص يرى الامر من زاويته وهذا بحد ذاته اثراء.تجارب البشر مختلفة ومعارفهم مختلفة وقراءتهم للاحداث ايضا مختلفة. لذا تصبح الحوارات مجالا ليتعرف المتحاورين على افكار بعضهم البعض.غياب ثقافة الحوار لها تاثير على الواقع خاصة فى الازمات.تخيلوا ان ياتى يوم فى المستقبل انه حين تحصل ازمة فى بلد عربى يدعى الرئيس المعارضين ويقول لهم.

تعالوا يا جماعةK البلد بلد الجميع ومسوؤلية الجميع دعنا نجد حلولا لمشاكلنا وانا هنا لكى استمع لافكاركم ولكى نتبادل معا الافكار والاراءلانه ان غرقت البلاد نغرق جميعا !

لقد تربى جيلى فى مناخ ما يعرف بالقومية العربية.و هى ايديولوجية سياسية ولدت فى بلاد الشام على خلفية الصراع مع الاحتلال التركى العثمانى.و لان المحتل كان مسلما كان من الطبيعى التركيز على اللسان اى اللغة النى تميزنا عن التركى.و هكذا بدا لبتنظير للقومية العربية انطلاقا من اللغة.و لو اقتصر الامر على البلاد المتجة لهذا الفكر لكان الامر معقولا.لكنه مع الوقت تمدد ليشمل ما بات يعرف بالبلاد العربية.كان مشروعا طموحا جدا لكنه لم ينجح. وما كان من الممكن ان ينجح.

لقاءات

اشعر بسعادة انى التقيت بالكثير من الاشخاص من بلاد وثقافات عديدة.و سعيد اكثر انى تعلمت الكثير منهم سواء بالتعرف على افكارهم ومعارفهم وخبراتهم فى الحياة.لقد تعلمت من خلال تجربة الحياة ان اطرح اسئلة من نوع ماذا تعتقد وما تظن وكيف ترى المسالة.

من المؤسف انى لم اتعلم طرح الاسئلة من الثقافة الى تربيت فيها.و لو ما طلب منى وضع خطوط عامة لنهج تربوى لاقترحت ان يتعلم الطالب ان يسال وان يطلب التوضح كلما راى ان الامر يحتاج ذلك.لان السائل قد يتعرض لاجواء سخرية سواء من رفاق الصف او الاستاذ احيانا ان سال فيضطر التلميذ ان يبقى صامتا مفضلا السلامة.

من الامور الغريبة فى بلادنا ان شخصا ما يسالك ثم لا يعطيك اى فرصة ان تجيب ويبدا هو بالاجابة على نفسه.دعنى اوضح الامر لا يوجد سؤال سخيف فى نظرى ايا كان بسيطا فهو يستحق ان ياخذ بجدية.ثقافة السؤال او الاسئلة مهمة لانها تسمح بحوار افضل ووسيلة جيدة للتعرف على افكار الشخص.

ولكم انزعج من تلك المجادلات العقيمة والغير مثمرة التى تبدو وكانها معركة فيها منتصر وفيها مهزوم.و لعل برنامج الاتجاه المعاكس الذى لم اره منذ اعوام مثال على نوعية الحوارات التى هى اقرب منها لحرب الى حوار بين شخصين<

والطريف انه ان صدف وكان المتحدث هادئا ويسعى لتقديم وجهة نظرة بهدوء، سارع مقدم البرنامج الى (اشعال) الحوار. ولذا لا

الانحياز للحقيقة وليس اقل من الحقيقة!

كررت اكثر من مرة انى اسخر قلمى المتواضع للدفاع عن كل المظلومين والمهمشين فى بلادنا.لا يهمنى الاصول العرقية او الدينية واللون او الخلفية الايديولوجية للانسان، بل تهمنى العدالة اولا وثانيا وثالثا والوقوف مع المظلوم!

لكنى مع ذلك لن اتوقف عن مجابهة ديكتاتورية الاكثرية العددية وكل انواع الديكتاتوريات الاخرى.كتبت عن الاضطهاد الذى تعرض له الاكراد والعلويين والشيعة والموارنة والغجر اى النور والارمن واليزيديين والسريان والاقباط فى حقب تاريخية معينة.مثلما كتبت عن الظلم الذى تعرض له السنة فى بعض الاحيان.و يجب ان اعترف انه لدى حساسية فائقة تجاه مسالة الظلم.

لذا يهمنى كثيرا التبشير بقيم وثقافة العدالة واخواتها من القيم الانسانية.المواقف فى بلادنا لم تزل انتقائية ذات الطابع العشائرى الدينى.اى حين يكون الارهاب من ذات القبيلة يكون رد الفعل اقل مما لو كان من قبيلة اخرى.

هذه ثقافة عشائرية متخلفة لا تاخذ بعين الاعتبار قيمة الانسان وكرامة الانسان ولا حتى الناحية الوطنية.بالنسبة لى الموقف من الارهاب واحد لا يتغير لانه موقف مبدئى واخلاقى وسياسى لا يجوز التلاعب به، والا فقد المرء مصداقيته.

لا بد من قول الحقيقة وليس اقل من الحقيقة.لا يمكن لنا ان نحتمل بعد الذى حصل فى بلادنا ان نتلاعب بالمواقف.